المعرفة فى التصور الإسلامى
الدوافع الذاتية والخارجية

أ.د / أحمد عبد الحميد الشاعر
أستاذ العقيدة والفلسفة

هذا البحث ، محاولة متواضعة للكشف عن الدوافع التى تحكم الإنسان فى مسيرته نحو المعرفة العليا مما يؤكد أن الإنسان فى بحثه عن الحقيقة الأزلية الخالدة لا يصدر عن ترف أو هوى . وانما تحكمة دوافع فطرية ونفسية وفسيولوجية وروحية وعقلية وثقافية وكونية ، وهذه كلها ترجع إلى جانبين : دوافع ذاتيه وأخرى خارجية .

هذا البحث جزء من بحث بعنوان " المعرفة فى التصور الاسلامى " قدم إلى مؤتمر " التوجيه الإسلامي للعلوم " الذي أقامته رابطة الجامعات الإسلامية مع جامعة الأزهر بالقاهرة ١٥ شوال ١٤١٢هـ الموافق ١٨/٤/١٩٩٢م

إن الإنسان - منذ خلقه الله تعالى - قد شغل بالبحث عن كل ما يحيط به من أشياء من أجل التعرف عليها من حيث طبيعتها، وأهميتها، وأثرها في الحياة.

ومن أجل الوصول إلى الحقيقة الخالدة المطلقة التي تكمن وراء هذا الوجود، ومنها يستمد كل موجود وجوده، خلقاً وابداعاً وهيمنة وتدبيراً، وعناية ورعاية، فقد شغل - في كل أطواره وبمختلف ثقافاته في كل عصر - بالنظر في نفسه تارة، وفي هذا الكون الرحب تارات وتارات، في محاولة دؤوب بهدف الوصول إلى اجابات شافية صحيحة لهذه التساؤلات: من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟.

إن هذا النمط من التفكير والبحث في أعلى مستوياته هو ما يسمى: الفلسفة العليا، أو الفلسفة الأولى، أو الفلسفة الإلهية، أو ما وراء الطبيعة، أو الميتافيزيقا.

إن هذا يعني البحث عن أسرار الوجود وعلله، أو البحث عن الوجود من حيث هو موجود، أو البحث عن الحقيقة المطلقة الخالدة.

* دوافع البحث عن المعرفة:

إن هذا البحث الجاد عن المعرفة لم يكن عبثاً، ولم يصدر الإنسان فيه عن ترف أو هوى، وإنما تحكمه دوافع ذاتية في تكوين الإنسان، وبنيته الأساسية، ومن ثم لن يستطيع - بحال ما - التخلص منها، أو أن يغض الطرف عنها، لأنها - بحكم طبيعتها - تصر - في إلحاح دائم - على تلبية حاجاتها، وإشباع رغباتها بصورة أو بأخرى، حقة كانت أو باطلة، صائبة أو خاطئة.

إن هذه الدوافع: فطرية ونفسية وفسيولوجية، وروحية وعقلية وكونية وثقافية، وهذه كلها ترجع الى جانبين: دوافع ذاتية وأخرى خارجية، وهذا بيانها، وبالله التوفيق.

* الجانب الأول: الدوافع الذاتية:

إن هذا النوع من الدوافع يشكل عناصر ذاتية في الطبيعة الإنسانية، ومن هنا كانت ذاتيته وعموميته في جميع أفراد بني الإنسان، ويتمثل في:

١ - الدافع الفطري النفسي.

٢ - الدافع الروحي.

٣ - الدافع العقلي.

وهذه وقفة مع كل منها: -

* أولاً: الدافع الفطري النفسي:

لقد فطر الإنسان على معرفة الله تعالى وتوحيده، فهو مصدر وجوده، وسر حياته ومن ثم يصبح من الطبعي أن ينشغل بالبحث عنه بغية معرفته والوصول إليه، حيث يجد نفسه في الخضوع له، والأنس به، فيهنأ باله، ويرتاح فكره، ويطمئن قلبه ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨ مدنية). ويتضح ذلك من وجوده:

* الوجه الأول:

بيان الحق تبارك وتعالى لأصل الفطرة الإنسانية في الإيمان به، والولاء له، وذلك في آية (الميثاق) من سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢ مكية). يقول الإمام ابن كثير - رضي الله عنه - (يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم: أن الله ربهم، ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله (ﷺ) (كل مولود يولد على الفطرة...) ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، قالوا: ولهذا قال ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل: من آدم. ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من من ظهره ﴿ذرياتهم﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن كقوله تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾، وقال ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ ثم قال ﴿وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم: قالوا: بلى﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ الآية، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون بذلك، وكذا قوله تعالى ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة

يكون بالحال كقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا: أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل واحد يذكره ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول (ﷺ) به كاف في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أن تقولوا﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إنا كنا عن هذا﴾ أي التوحيد ﴿غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾ الآية[1].

يؤكد هذا ما جاء في صحيح السنة النبوية المطهرة مما أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم - رضي الله عنهما - من رواية أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله (ﷺ) قال: (ما من مولود يولد إلا على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء. ثم يقول: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله. ذلك الدين القيم﴾. وفي رواية أخرى لأبي هريرة - أيضاً - بلفظ (كل مولود يولد على الفطرة).

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده، والنسائي في كتاب السير عن الأسود بن سريع قال: قال رسول الله (ﷺ) (كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها، أو ينصرانها).

وقد أخرج الإمام أحمد - أيضاً - عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله (ﷺ) كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه: (إما شاكراً وإما كفوراً).

يتضح من كل هذه الروايات أنها تفيد الحصر والقصر، وبخاصة هذا الأسلوب البلاغي المعروف بصيغة النفي والإثبات، مما يؤكد أن كل فرد من أفراد البشر قد جبل وفطر على الإيمان بالله الواحد القهار.

*** الوجـــــه الثانـــي:**

أن الإنسان إنسان لما فطر عليه من الأنس والشوق إلى مصدر وجوده، وسر حياته، فإذا ما حظي بمعرفته في الواقع معرفة كاملة وصحيحة، فإنه يأنس به، ويطمئن قلبه إليه - كما أسلفنا. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ج ٢ ص.

(سورة الرعد: الآية ٢٨ مدنية).

من هنا فإنه يدين له بالطاعة والولاء، فيسبح بحمده، ويسجد له، فينسجم بذلك مع الوجود كله في تلك الحقيقة الواقعة ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة الاسراء: الآية ٤٤ مكية).

أن الإنسان إذا كان - بمقتضى تلك الفطرة - يأنس بمصدر وجوده ويشتاق اليه في حال اليسر والرخاء فإنه في حال الشدة والضراء يصبح أشد فزعاً إليه، وتقرباً منه.. ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة الروم: الآية ٣٢ مكية). ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (سورة الزمر: الآية ٨ مكية).

وفي سورة يونس - وهي مكية - صورة عملية لتلك الحقيقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الآية: ٢٢، ٢٣ مكية).

إن هذه الوجوه المختلفة تؤكد فطرة الخلق في معرفة الحق. وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - (أن أصل العلم الإلهي فطري، وضروري، وأنه أشد رسوخاً من مبدأ العلم الرياضي، كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومن مبدأ العلم الطبيعي كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين، لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر، وأما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة).[٢]

وإذا ما تقررت تلك الحقيقة فإن الأمر يقتضي أن تعرض لما يراه (علم النفس الحديث) في هذه القضية، وحسبنا في ذلك ما يقوله الدكتور عثمان نجاتي في كتابه (القرآن وعلم النفس): (إن دافع التدين دافع نفسي له أساس فطري في طبيعة تكوين الإنسان،

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ٢، كتاب توحيد الربوبية، ص ١٥.

فالإنسان يشعر في أعماق نفسه بدافع يدفعه إلى البحث، والتفكير، برقة خالقه، وخالق الكون، وإلى عبادته، والتوسل إليه، والالتجاء إليه، طالباً منه العون كلما اشتدت به مصائب الحياة وكروبها، وهو يجد في حمايته ورعايته الأمن والطمأنينة، نجد ذلك واضحاً في سلوك الإنسان في جميع عصور التاريخ، وفي مختلف المجتمعات الإنسانية، غير أن تصور الإنسان في المجتمعات المختلفة لطبيعة الإله، والطريقة التي يسلكها في عبادته له إياه، قد تختلف تبعاً لمستوى تفكيره، ودرجة تطوره الثقافي، غير أن هذه الاختلافات في تصور الإنسان لطبيعة الإله، أو طريقة عبادته إنما هي اختلافات في طريقة التعبير عن ذلك الدافع الفطري للتدين الموجود في أعماق النفس البشرية)[٣].

* الإلحـــاد والتديـــن:

بقيت كلمة أخيرة يفرضها المقام عن الإلحاد والتدين على ضوء ما أكدناه من ذلك الدافع الرباني الفطري الذاتي، وقد عالجت هذا الموضوع في كتابي (الإسلام والفكر المادي) وذلك في الفصل الأول[٤]: (حتمية التدين) من الباب الثالث (قضايا التحدي بين الإسلام والفكر المادي) ولا بأس أن تقتطف منه مايلي:

(قد يظن البعض - خاصة دعاة الفكر المادي - أن الإلحاد ورفض الأديان دليل مادي على أن التدين ليس من الأمور الذاتية في الطبيعة الإنسانية، إذ لو كان كذلك لما استطاع إنسان أن يتخلص منه، ويعيش بدونه، والحقيقة أن هذا وهم فاسد، وزعم خاطىء لا ينهض عليه دليل، وليس أسهل من الإنكار والتدهور والإنحدار، ولكنا نقول):

(إن الحق الواقع لا يؤثر في وجوده إنكار مكابر، فقد ينكر المريض طعم الماء من سقم، وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد، وهذا وذاك لا يخدش وجه الحقيقة في شيء).

(إن أحداً من منكري التدين - وهو الدافع الفطري الذاتي - لم يستطع أن يقدم الدليل العلمي المقبول على إثبات مدعاه. أما حتمية التدين فهي من الأمور الفطرية التي يستشعرها الإنسان في نفسه، ويدركها بوجدانه وعقله، والدليل عليها إذا احتاج الأمر إلى دليل ما يأتي):-

(٣) القرآن وعلم النفس ١٨/١٧، ط، دار الشروق، ١٩٨٥.

(٤) الإسلام والفكر المادي ص ٢٥١ وما بعدها للدكتور أحمد الشاعر، ط ٢، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٨٦م.

أولا: شهادة التاريخ والعلماء المختصين في الأديان والاجتماع والنفس والأخلاق والفلسفة والتاريخ وعلم الكلام.. إلخ، بما يؤكد: أن الإنسان لم يعش فترة من حياته دون عقيدة: حقة كانت أو باطلة، صائبة أو خاطئة، فقد اعتقد الإنسان - عبر التاريخ وفي الحاضر - في صنوف شتى من الأرواح والأشباح والجماد والنبات والحيوان والأشخاص والكواكب وغيرها من أنواع الصنمية والوثنية القديمة والحديثة.

ثانيا: ما يستشعره الإنسان في نفسه، ويدركه بعقله ووجدانه من الإحساس بقوة غيبية عليا هي أسمى منه، ومن كل شيء في الوجود من حوله تهيمن عليه خلقاً وإبداعاً، فيدين لها بالخضوع والطاعة والولاء.

ثالثا: إن الإنسان الملحد والشعوب اللادينية تتردى من منحدر إلى منحدر ولا تثبت على اعتقاد إلا بالضغط والإكراه، وما يسمى بـ«غسيل المخ» عن طريق التربية والتعليم وأجهزة الإعلام وغيرها، ومن ثم فإنها: -

١ - تضل طريق العقيدة السليمة، فتتردى بين أحضان عبادة الأشخاص والأهواء وغير ذلك من الترهات.

٢ - أنها تقيم الاعتقاد على المنفعة والمنفعة، من شأنها التغير لا الثبات.

ومن هنا كان الاعتقاد مبنياً على الظن الذي لا ينفع في باب العقائد (أن الظن لا يغني من الحق شيئاً) ولأن العقائد لا تبنى إلا على يقين.

على ضوء ذلك نستطيع أن نقول:

إن الإلحاد واللادينية والخروج على الأديان ليس دليلاً بأية حال على عدم فطرية التدين، بل إنه دليل على حتميته وحقيقته ووجوده. ذلك أن الملحد قد انحرف بفطرته بوسائل إشباع خاطئة، وضل الطريق إلى الحق والعقيدة الصحيحة، وانحرافه هذا ليس دليلاً على عدم وجود دافع التدين في ذاته بل يؤكده بالبداهة، لأنه - مهما ضل الطريق - لن يستطيع التخلص من دوافعه الفطرية، ومقوماته الذاتية، فانحرافه عن الايمان بالله لا ينفي الاعتقاد الصحيح والاعتراف بوجود الله، ومهما تعددت الاعتقادات فإن العقيدة الصحيحة منها واحدة فقط لأن الحق واحد، والحق هنا الارتباط بالله، مالك الملك والملكوت، قيوم السموات والأرض، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الروم:

الآية ٣٠ مكية).

* ثانيـــاً: الدافـــع الروحـــي

لقد خلق الله الإنسان قبضة من تراب الأرض ونفخة من روح الله تعالى. وأعده إعداداً خاصاً يكون به خليفة في أرضه ينشر فيها العدل والأمن والطمأنينة والسلام، ومن ثم مكن له في الأرض، وسخر له الكثير من مخلوقاته، ومن قبل ذلك أسجد له ملائكته سجود احترام وتقدير وتكريم، وهو في نفس الوقت طاعة لله، وامتثالاً لأمره الكريم.

والإنسان بمقتضى مادته الطينية ليس شيئاً مذكوراً، لكنه استأهل ذلك التكريم، وتلك المكانة لما فيه من جانب روحي عظيم هو نفخة من روح الله تعالى. ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (سورة ص: الآية ٧١، ٧٢ مكية).

وإذا كان الإنسان يخضع - في سلوكه نحو غايته - لمجموعة من الدوافع النفسية والفسيولوجية تدفعه إلى تحقيق رغباتها، وتلبية حاجاتها فإنه كذلك - بمقتضى الروح فيه - يشتاق إلى خالقه عز وجل، وبها ينفتح على الملأ الأعلى، وإليها يكون الفيض الإلهي بالإلهام تارة، وبالرؤيا الصادقة تارة أخرى، وفي قمة ذلك كله الوحي الإلهي للأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ونحن نعلم أن الإلهام بالنسبة للأنبياء نوع من الوحي، ومنه ما جاء في صحيح ابن حبان بسنده عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: (إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب).

ومن المعلوم - كذلك - أن الله تعالى يتفضل على عباده الصالحين بالإلهام ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله (ﷺ) (لقد كان فيما قبلكم من الأمم أناس محدَّثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر)(٥).

وفي رواية له - أيضاً - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله (ﷺ) (لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر).

(٥) فتح الباري ج ٧ كتاب فضائل الصحابة، الطبعة السلفية، القاهرة.

يقول ابن حجر - رضي الله عنه - في فتح الباري (محدثون) بفتح الدال جمع (محدَّث) واختلف في تأويله: فقيل (ملهم) قاله الأكثر، قالوا: المحدث - بالفتح - هو الرجل الصادق الظن، وهو من ألقى في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى. فيكون كالذي حدثه غيره، وقيل: يكلم، أي تكلمه الملائكة بغير نبوة، وهذا ورد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً، ولفظه: (قيل: يارسول الله، كيف يحدَّث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه) ويحتمل ردها الى المعنى الأول، أي تكلمه في نفسه، وإن لم يُرَ مكلماً في الحقيقة. فيرجع إلى الإلهام) وفي حديث عائشة (المحدَّث: الملهم بالصواب الذي يلقى على فيه)(٦)

ونحن نعلم - كذلك - أن الرؤيا للأنبياء وحي، فقد ذكر البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: أول ما بدىء من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءته مثل فلق الصبح)(٧).

وفي ذلك - أيضاً - رؤيا أبي الأنبياء - عليه السلام ﴿يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال: ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

وفي الآية الكريمة ملحظ يؤكد ذلك حيث أن أبا الأنبياء يخبر ابنه بالرؤيا، فيكون جوابه ﴿افعل ما تؤمر﴾. هكذا بالفعل ﴿تؤمر﴾ المبني للمجهول. للعلم بالفاعل. مما يؤكد: أن هذه الرؤيا أمر من الله واجب التنفيذ، ومن ثم كان الامتثال. وكان الفداء أيضا ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ (سورة الصافات: الآية ١٠٣ : ١٠٧، مكية).

وإذا كانت الرؤيا الصادقة وحياً للأنبياء فإنها للصالحين من عباد الله تعالى جزءاً من ستة وأربعين جزءٌ من النبوة فقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي قتادة، رضي الله عنه- عن النبي (ﷺ) قال: (الرؤيا الصالحة من الله)، والحلم من الشيطان، وقد روى أيضاً - عن أبي سعيد الخدري: أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول (الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) وكذلك روي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (لم يبق من النبوات إلا المبشرات، قالوا وما المبشرات، قال: الرؤيا الصالحة)(٨).

(٦) فتح الباري ج ٧ كتاب فضائل الصحابة، المطبعة السلفية، القاهرة.
(٧) نفسه، ج ١٢، كتاب تعبير الرؤيا، وأيضاً صحيح البخاري ج ١ باب بدء الوحي.
(٨) أحاديث الرؤيا من فتح الباري ج ١٢ كتاب تعبير الرؤيا.

إن كل ما ذكرناه عن الإلهام والرؤيا الصالحة يؤكد بحق كيف أن الانسان ينفتح على الملأ الأعلى من خلال روحه فينكشف له من الأشياء مالا يعلمه إلا الله تعالى. وكيف أن هذه الروح توافقة مشتاقة إلى مصدرها وسر وجودها وتستمد منه قيمتها وحقيقتها في هذا الوجود.

* ثالثاً: الدافع العقلي:

لاشك في أن الإنسان يتميز عن الحيوان بالعقل. تلك الهبة الربانية العظمى التي بها يتمكن من القدرة على التفكير، والنظر في الأشياء، والبحث والاستقصاء، والانتقال من الجزئيات إلى الكليات، ومن المقدمات إلى النتائج، وكذلك الحكم على الأشياء والأفعال كل ذلك بإرادته الكاملة، وحريته واختياره.

من هنا كان الإنسان أهلاً للتكليف، وتحمل الأمانة الكبرى، والمسئولية عنها، وحيثما كان العقل، وكانت الإرادة الحرة كانت المسئولية. وإذا ما أصيب العقل بالخلل والاضطراب، أو فقدت الارادة الحرة، سقطت المسئولية من الحساب.

وقد كشف الحق تبارك وتعالى عن حكمته - جلت قدرته - في استخلاف الإنسان على هذه الأرض رغم ما فيه من نوازع الشر والإفساد وسفك الدماء، فبين - سبحانه - أن قدرة الإنسان على التفكير، واستعداده للعلم والمعرفة والحكم على الأشياء تجعله أهلا لتلك الخلافة والمسئولية عنها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾
﴿ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾
﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾
﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾
﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٣٠-٣٣ مدنية).

يوضح العقاد - رحمه الله - طبيعة العقل المخاطب في الإسلام فيقول: (إن العقل الذي يخاطب في الإسلام: هو العقل الذي يستلم الضمير. ويدرك الحقائق، ويميز بين

الأمور ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويتدبر، ويحسن الأذكار والرواية، وأنه هو (العقل الذي يقابله الجمود والعنت والضلال، وليس العقل الذي قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون. فإن الجنون يسقط التكليف في جميع الأديان والشرائع، ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقطة للتكليف في الإسلام وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه، فإنها لا تدفع الملامة، ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير)[٩].

العقل إذن استعداد فطري متع الله به الإنسان حتى يتمكن من أداء رسالته في الحياة. فهو ملكة التأمل والتفكير، والتعلم والتذكر، والإدراك والتحكم والتدبر (وما يذكر إلا أولو الألباب).

ترى - بعد هذا - هل يستطيع إنسان عاقل - مهما أوتي من قدرة - أن يغفل عن صوت العقل يصرخ في باطنه، فيهز أعماق نفسه باحثاً عن الحقيقة: من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟.

الآن قد انتهينا من كشف الدوافع الداخلية الباطنة في الإنسان، وهي دوافع ذاتية ليس في مقدور الإنسان أن يقتلع جذورها من أعماق نفسه، وإن كان يمكن أن يطمس معالمها، أو ينحرف بها عن غاياتها المرجوة منها.

* الجانب الثاني الدوافع الخارجية :

إننا نعني بهذا النوع من الدوافع - على وجه الخصوص - أموراً ثلاثة، هي: -

١ - الدافع الكوني.

٢ - القرآن الكريم.

٣ - الدافع الثقافي.

وهذه وقفة مع كل من هذه الدوافع حسبما يقتضيه المقام، وبالله التوفيق.

* أولاً : الدافع الكوني :

إننا نعني بهذا الدافع ذلك الكون الرحب، ونحن جزء منه. فإنه يدعو إلى العجب العجاب، ويثير الدهشة والاستغراب في كل عالم من عوالمه المترامية الأطراف، الإنسان والحيوان والنبات والجماد. والسماء والكواكب والأفلاك وما تدور فيها من مجرات، وكل

(٩) التفكير فريضة إسلامية ص ٢٠ ط ٢ بيروت ١٩٦٩.

ذلك يأخذ بالألباب، سواء في كل وحدة من وحداته، أو في ذلك التناسق والانسجام والتناغم بين مختلف عناصره وعوالمه.

من ثم يصبح ذلك الكون بكل أجناسه وأنواعه من أهم الدوافع الخارجية التي تدفع الإنسان دفعاً للبحث عن تلك القدرة الخلاقة، والحقيقة المطلقة التي تكمن وراء هذا الوجود البديع. من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ لماذا؟.

تحت عنوان (كيف بدأت الحياة) يقول كريس موريسون في كتابه (العلم يدعو للإيمان): (لنعالج الموضوع بشعور من الإجلال، لا تحده الحدود الدقيقة التي تفرضها العقائد الدينية، أو الحقائق العلمية بشأن سبب الحياة ومصدرها، ولنتصور لأنفسنا الواقع المعترف بها، وبذا يمكننا أن نحكم أمامنا الموضوع كاملاً، وبهذه الصورة الطريفة يمكننا أن نعلم: أني وأنت مجرد مجموعة عرضية من المادة، تولدت عن الكيماويات والوقت أولاً).

(انظر إلى الشيء الوحيد الهام. إنه أهم من الأرض نفسها، ومن الكون كله، وأهم من كل شيء آخر. ما عدا الخالق المدبر الذي كان السبب في وجود ذلك الشيء. وأعني تلك النقطة من النطفة (البروتوبلازم) التي لا تكاد ترى، وهي شفافة لزجة (كالجيلاتين) قادرة على الحركة، تستمد نشاطها من الشمس، وهي بالفعل كفء لاستخدام ضوء الشمس في غاز ثاني أوكسيد الكربون من الهواء، مرغمة الذرات على الانفصالا، قابضة على الهيدروجين من الماء، ومنتجة لهيدرونات الكربون، وبذا تعد غذاءها بنفسها من أحد المركبات العنيدة للغاية).

(إن هذه الخلية الفريدة. هي النقطة الصغيرة الشفافة التي تشبه الطل تحتوي في نفسها على جرثومة الحياة ، وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حي كبيراً كان أو صغيراً، وعلى مطابقة كل مخلوق لبيئته حيثما يمكن وجود الحياة من قاع المحيط إلى السماء).

إن قوة هذه النقطة الصغيرة من النطفة (البروتوبلازم) ومحتوياتها كانت ولا تزال أعظم من الزرع الذي تخضر به الأرض، وأعظم من كل الحيوانات التي تتنسم نسيم الحياة لأنها مصدر كل حياة، وبدونها كان لا يمكن وجود شيء حي.

(والعلم يوافق على ما ذكرناه خطوة خطوة، ولكنه يتردد في أن يتخذ خطوة أخيرة ويقول: إن الإنسان قد خطى على هذه الأرض بوصفه طفلاً لمنبع الحياة الكوني سيداً بين الحيوانات، وذا تكوين مادي معقد التركيب للغاية، وصاحب عقل أعد عن قصد ليتلقى لمحة من القدرة الإلهية التي نسميها بالروح)[١٠].

هذا النص يبرز لنا مظهراً من مظاهر العظمة الإلهية ودلائل القدرة الربانية في هذا الوجود. وهو نص له أهميته، لأن المؤلف - كما قالت عنه مجلة مارثغورد كورانت الأمريكية - (رئيس سابق لأكاديمية العلوم في نيويورك) قد اشتق الوقائع من مختلف العلوم، وجمعها معاً في الكتاب الذي يفتح الأذهان، ويضيئها بشكل يدعو إلى العجب. وقد استعان المؤلف بالأمثلة المختلفة من علم الفلك والجيولوجيا وعلم الحشرات وعلم النبات، وعلم الأحياء، وعلم النفس، والفلسفة. وقد جمع هذه المادة بعناية بالغة، وعرضها بدقة وبراعة، واشتق من هذه العلوم المتشابكة حقائق عجيبة مرتبطة بعضها ببعض في انسجام كامل يؤدي بالضرورة إلى ايمان كل إنسان مفكر سليم الفكر بوجود الله)[١١].

من هنا ندرك عناية القرآن الكريم بتوجيه الإنسان إلى النظر في نفسه، وفي الكون المحيط به، مما يدفعه - بيقين - إلى المعرفة الصحيحة بعظمة الله وقدرته في هذا الوجود، ومن ذلك قوله تعالى: -

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (سورة عبس: ٢٤ - ٣٢، مكية).

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (سورة الطارق: ٥-٧، مكية).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (سورة الغاشية: ١٧-٢٠، مكية).

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الذاريات: ٢٠-٢١، مكية).

---

(١٠) العلم يدعو للإيمان ص ٩٤، ٩٥، ط ٦ سنة ١٩٧١م مكتبة النهضة المصرية، والعنوان الأصلي هو (الإنسان لا يقوم وحده) وقد رد به مؤلفه على كتاب (الإنسان يقوم وحده) لمؤلفه الملحد جوليان هكسلي.

(١١) نفسه: ص ١٣.

* ثانيـــاً القـــرآن الكريـــم :

إن القرآن الكريم - في اعتقادنا - أهم الدوافع الخارجية التي تدفع الإنسان إلى النظر والتأمل والتفكر والتذكر والإدراك والتعلم والتحكم، وغير ذلك من العمليات العقلية التي تصل بالإنسان إلى المعرفة الخالصة الصادقة، والحقيقة المطلقة الخالدة. مع أنه في نفس الوقت - يقدمها واضحة جلية، ظاهرة نقية، لكنه لا يريد أن يلغي دور العقل الإنساني ومن ثم لا يقبل منه الإيمان إلا عن طواعية وحرية واختيار.

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٦، مدنية).

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (سورة الكهف: ٢٩، مكية).

ومن هنا ترى القرآن يدفع الإنسان دفعاً إلى النظر في هذا الكون وفي نفسه وفي كل شيء حوله. ويتضح ذلك في مجالين:

* المجال الأول : الأمر بالنظر والتفكير والتأمل في الكون.

يحرص القرآن الكريم على توجيه الإنسان بالنظر في هذا الكون الرحب وفي نفسه أيضاً بغية الوصول إلى الحق سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله جل شأنه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة يونس: ١٠١، مكية)

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٠، مكية).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (سورة الغاشية: ١٧-٢٠، مكية).

وهكذا يأتي الأمر مباشرة بالنظر في كثير من الآيات القرآنية الكريمة. وفي غيرها يأتي بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي ليكون أدعى إلى الامتثال والاستجابة. بالإضافة إلى أنه ما ينبغي لعاقل أن يهمل جانب النظر والتأمل فذلك تعطيل لأعظم نعمة امتن الله بها على الإنسان - ومن هذه الآيات قوله تعالى: -

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٥، مكية).

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (سورة ق: ٦-٨، مكية).

وقوله تعالى ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الذاريات: ٢٠-٢١، مكية).

وهنا ملاحظ ينبغي أن نعلمها وهي:

* الملحظ الأول:

أن النظر المأمور به في هذه الآيات يعني التأمل والتفكر والتدبر، فهو استدلال خاص يعرفه العلماء، وإن كان لا يحرم منه عامة الناس، وكل حسب إمكاناته وقدراته وجهده.

بهذا يصبح من الخطأ فهم هذه الآيات على أنها موجهة إلى أصحاب العقول الساذجة فحسب فإن هذا تحكم لا يليق بمقام القرآن، ذلك أن الخطاب القرآني موجه إلى الناس جميعاً رغم اختلاف مداركهم، وتباين قدراتهم، وليس ذلك في جملته بل في كل آية من آياته وبكل كلمة من كلماته.

فهذه الآيات البينات ينظر فيها السذج من الناس نظراً حسياً يقف عند حد الصور المحسوسة فحسب، ويدركون ما وراء تلك الصور من قدرة ربانية تحكمها خلقاً وهيمنة وتدبيراً.

أما العلماء المختصون - حسب مجالاتهم العديدة- فهم ينظرون في تلك الآيات الكونية المتناثرة في رحاب الكون نظرة علمية دقيقة لا تقف عند حد مظاهرها الحسية بل تنفذ عقولهم وتغوص في أعماقها، فينكشف لهم ما لا يعلمه الآخرون، ومن ثم يهتفون من أعماق أنفسهم بتلك القدرة الخلاقة المبدعة، صنع الله الذي أتقن كل شيء، إنه على كل شيء قدير.

* الملحظ الثاني:

أنه بناء على هذه الآيات الواردة في الأمر بالنظر رأى جمهور الأئمة أن أول واجب على المكلف هو النظر[١٢].

(١٢) يراجع في ذلك: شرح السنوسية الكبرى، مباحث النظر ص ١١ وما بعدها، تحقيق د. عبدالفتاح بركة

* الملحـــظ الثالـــث :

إن الإسلام يدعو إلى الاستقلال الفكري بحيث لا يكون الإنسان إمعة يعيش على التقليد إن أحسن الناس أحسن، وإن أساؤوا أساء ولكن يوطن نفسه على الإرادة الحرة المستقلة بفكر ثاقب، وتأمل نافذ، وإدراك صحيح للأمور، فإن أحسن الناس أحسن، وإن أساؤوا تجنب إساءتهم.

﴿ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ (سورة سبأ: ٤٦ مكية).

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الحشر: ٢١، مدنية).

ومن هنا أيضا ينعى القرآن على المقلدين تقليدهم، وإهمال عقولهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٧٠، مدنية).

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٢٣، مكية).

* المجـــال الثـــاني الأمـــر بالنظـــر في التاريـــخ :

ذلك أن التاريخ وعاء العلوم ومرآة الأمم، وأمة بلا تاريخ لا قيمة لها في هذا العالم. في التاريخ عبرة وعظة، و(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) حيث نرى - بحق - مصارع الطغاة على صخرة الحق.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧، مدنية).

﴿ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (سورة النحل: ٣٦، مكية)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (سورة : غافر ٨٢، مكية).

وهكذا نرى الكثير من الآيات القرآنية تأمر بالنظر في التاريخ بالإضافة إلى القصص القرآني عن الأمم الغابرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (سورة يوسف: ١١١، مكية).

بعد كل هذا نرى كيف أن القرآن من أهم الدوافع الخارجية التي تدفع الإنسان دفعاً نحو التفكر والتأمل والنظر، بل إنه أوجب العلم والتفكير حيث الطريق الصحيح إلى معرفة الله تعالى معرفة خالصة صادقة.

يقول استاذنا الدكتور / محمد غلاب رحمه الله :

(لا ريب أن كل من يلقى نظرة فاحصة على القرآن ، ويتأمل في آياته الدافعة إلى التدبر والتفكر في شيء عظيم من الجد، يتضح له : أن هذا الكتاب الكريم هو أول أسباب تغلغل الفلسفة في البيئات العربية. بل هو أول كتاب سماوي فرض تعلم الفلسفة على أتباعه فرضاً، وأوجب عليهم التفكير في أسرار وخفايا الوجود، ووصف المتأملين في هذا. أنهم وحدهم أولو الألباب، ورمى الذين لا يتدبرون بأنهم لا يعقلون.

وقد أراد بهذا الحض الجازم أن يصل المؤمنون بهذا التفكير إلى معرفة المبدع الأول، ووحدانيته وكماله، وإلى الإيمان به عن طريق العقل لا عن طريق التقليد، ثم يقول من ذلك (حدثني بربك عن تعريف الفلسفة العليا، أو فلسفة ما بعد الطبيعة، وهل هو شيء آخر غير البحث عن أسرار الوجود، وعلة العلل التي عنها صدر كل شيء، وهي لم تصدر عن شيء، أو البحث عن ألف كل شيء وبائه، أو عن: من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟ (وهل موضوع تلك الفلسفة العليا شيء آخر غير حقيقة الحقائق من حيث كشفها إماطة اللثام عنها؟ وهل غايتها شيء آخر غير الحق والخير؟ وهل هناك فروق بين دعوة الفلسفة معتنقيها الى التأمل في نشأة العالم ومصيره، وفي عظمة الكون، ونظام تسييره ، والآيات القرآنية)[١٣].

أما الأستاذ العقاد - رحمه الله تعالى - فقد وضع مؤلفاً في ذلك الموضوع بعنوان : (التفكير فريضة إسلامية) إن مضمون الكتاب واضح في هذا العنوان، يقول - رحمه الله - (فريضة التفكير في القرآن تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها، فهو يخاطب العقل الوازع ، والعقد المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد، ولا يذكر العقل عرضاً مقتضباً بل يذكره مقصودا مفصلاً ، على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان)[١٤].

(١٣) المرأة عند مفكري الإسلام ص ١٢٢، ١٢٣، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، يونيو ١٩٦٦م.

(١٤) التفكير فريضة إسلامية ص ٩ .

لهذا كله لا عجب أن يفرض الإسلام العلم على كل مسلم ومسلمة، وأن تكون أولى كلمات الوحي الإلهي الخاتم، حديث عن العلم وأدواته: القلم والقراءة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق: ١-٥ مكية).

والعلم في الإسلام مطلق فيشمل العلم الإلهي والطبيعي والرياضي.. إلخ. بل يدفع الإنسان إلى إعمال العقل والفكر من أجل الوصول إلى علوم جديدة تفيده في الحياة، ﴿ويخلق ما لاتعلمون﴾، وليس هناك من قيد على العلوم في الإسلام سوى أن تكون نافعة للفرد والمجتمع، وللتعمير وليست للتخريب والتدمير، متسمة بأخلاقيات وقيم إنسانية نبيلة وغايتها صلاح الدين والدنيا (وقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله (ﷺ) قال: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة)[١٥].

وفي نهاية هذا الموضوع نذكر بأن القرآن الكريم يحذر وينذر أولئك الذين يهملون عقولهم ويكفرون بأجل نعم الله عليهم، بأنهم كالحيوانات بل هم أضل، ومن ثم يكون مأواهم جهنم وبئس المصير.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩، مكية).

* ثالثاً الدافع الثقافي:

لا يستطيع أحد أن ينكر دور الثقافة الإنسانية، وأثرها في توجيه الأفراد والمجتمعات على مختلف المستويات، ومن هنا - على المستوى الفكري الخاص - فإن فيلسوفا ما لا ينشأ من فراغ، وإنما ينطلق - في فلسفته - من أرض خصبة ممثلة في تراث السابقين عليه، أو المعاصرين له.

من هنا ندرك مدى التأثير الثقافي والفكري في الإنسان، وإثارة كوامنه مما يدفعه إلى إعمال العقل، بالتأمل والتفكر والتدبر في كل ما يحيط به من أشياء.

(١٥) رياض الصالحين، كتاب العلم.

ولقد كانت الثقافات الوافدة على العالم الإسلامي من أهم العوامل التي تؤكد تلك الحقيقة. حيث أثرت فيه تأثيراً مباشراً، خيراً أو شراً، إيجاباً أو سلباً.

ولقد بدأ هذا التأثير واضحاً في مختلف الجوانب عامة، وفي المعرفة وأدواتها خاصة، مما يؤكد حقيقة التلاحم الفكري والثقافي بين مختلف الشعوب، والأجناس، ويبقى السؤال بعد ذلك عن مدى أصالة الفكر الإسلامي رغم هذا التأثر المباشر بالثقافات والفلسفات المختلفة(١٦).

من أجل هذا نذكر بتأكيد الإسلام على استقلال الفكر - كما أسلفنا من قبل - بحيث لا يكون الإنسان إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تتجنبوا إساءتهم.

إن هذا يقتضي الفكر الهادىء الرصين، مصداق قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ (سورة سبأ: ٤٦، مكية).

وميزان الفكر الصحيح أن يتفق مع ما يقتضيه الشرع الصحيح، والعقل الصريح، والله تعالى هو الحق، يهدي للحق، وليس بعد الحق إلا الضلال ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (سورة الإسراء: ٩، مكية).

* المعـــــرفة وأهميتـــــها:

أصبح من المؤكد أن الإنسان - بحكم دوافعه الذاتية والخارجية - ينشغل دوماً بالبحث عن معرفة كل ما يحيط به من أشياء، وفي ذات نفسه أيضاً، فيحاول - جهده - أن يتعرف عليها من حيث طبيعتها، والعلة التي تحكمها، والغاية منها... الخ.

إن هذا الأمر الطبعي أدى إلى تنوع المعارف التي نحصل عليها.

سواء في مصدرها: حسية أو عقلية. فطرية أو مكتسبة. ربانية أو انسانية.
وسواء في طبيعتها: جزئية أو كلية. عامة أو خاصة.
وسواء في قيمتها: ظنية أو يقينية. حتمية أو احتمالية.
وسواء في ذاتها ونسبتها: مطلقة أو نسبية. أصلية أو فرعية.

(١٦) يراجع في ذلك الفصل الرابع من كتابنا (مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي).

بيد أنا حينما نطرح موضوع المعرفة للبحث والاستقصاء، والفحص والتمحيص فإنه يصبح من الطبيعي أن تكون تلك المعرفة من نوع خاص جدير أن ينشغل به العلماء والمفكرون والحكماء (وما يعقلها إلا العالمون).

من هنا كانت تلك التساؤلات التي تفرض نفسها.

ما المراد بتلك المعرفة؟

وما أهميتها؟ وما قيمتها؟ وما حكم العلم بها؟

وما مصادر تلك المعرفة؟

وأين تلك المصادر من طبيعة الإنسان وتكوينه؟ . . إلخ . .

لبيان ذلك نقول وبالله التوفيق:

إن ذلك النوع من المعرفة التي يكرس لها الباحثون جهدهم نعني به ما يسمى: المعرفة العليا، أو حقيقة الحقائق، أو الحقيقة المطلقة الخالدة التي تكمن وراء هذا الوجود، ومنها يستمد كل موجود وجوده، وتهيمن عليه خلقاً وابداعاً وعناية ورعاية، وحكماً وتدبيراً.

ويقال عنها: إنها البحث عن أسرار الوجود وعلله، أو علم الأشياء بحقائقها، كما تسمى الفلسفة العليا، أو الفلسفة الأولى، أو الميتافيزيقا.

إنها المسئول عنها دائما، من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟ أما قيمة تلك المعرفة وأهميتها فإنها تتعلق بقيمة موضوعها الذي هو الغاية القصوى منها - الحق تبارك وتعالى.

ذلك أن الإنسان قد خلق لغاية كبرى هي عبادة الله تعالى - وحده لا شريك له - تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦-٥٨)، ومن ثم يصبح من البديهي أن يعشق البحث عنه، ويشتاق إليه، حيث يتعرف على معبوده بحق، ويعلم - بيقين - ما يليق بذاته القدسية من صفات الجلال والكمال.

بهذا جاءت الرسالات السماوية (ذلك أن الأنبياء - عليهم السلام - دعوا الناس إلى عبادة الله أولا بالقلب واللسان، وعبادته متضمنة لمعرفته وذكره)[١٧].

ويضيف ابن تيمية قائلاً:

(١٧) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢ كتاب توحيد الربوبية ص ١٥.

(ففاتحة دعوة الرسل : الأمر بالعبادة، قال تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ وقال رسول الله (ﷺ) (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . وأن محمداً عبده ورسوله) وذلك يتضمن الإقرار به، وعبادته وحده، فإن الإله هو المعبود - ولم يقل حتى يشهدوا ألا رب إلا الله . فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له . التي لها خلق الخلق، وبها أمروا.

(كذلك قوله لمعاذ: إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وقال نوح عليه السلام ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون ﴾ وكذلك الرسل في سورة الأعراف وغيرها [١٨].

يريد - رحمه الله - ما جاء في سورة الأعراف بقوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

وعن هود عليه السلام ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

وعن صالح عليه السلام ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

وعن شعيب عليه السلام قوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٩ - ٦٥ - ٧٣ - ٨٥).

كما يريد - رحمه الله - بغير الأعراف الكثير من سور القرآن الكريم التي ورد فيها بيان أول دعوة الأنبياء عليهم السلام مثل سورة هود، وسورة الشعراء وغيرهما.

على ضوء هذا وغيره يقرر شيخ الإسلام (أن أول الواجبات هو الإيمان بالله لا النظر)[١٩].

بينما يرى غيره من العلماء كالسنوسي - رحمه الله - أن أول واجب على المكلف هو النظر فيقول (جمهور الأئمة يرون وجوب النظر وتحريم الاقتصار على التقليد).

ويوضح النظر بقوله: (حقيقة النظر: ترتيب أمور معلومة على وجه يؤدي إلى

(١٨) نفسه ص ١٣ - ١٤.
(١٩) مجموع الفتاوى ج ٢ هامش ص ١.

استعلام ما ليس بمعلوم. كذا عرفه البيضاوي).

وبعد أن استعرض آراء العلماء في حكم النظر يقرر رأيه المختار مع التعليل فيقول (وإنما أخذت من هذه الأقوال: أن أول واجب هو النظر لتكرار الحديث على النظر في الكتاب والسنة حتى كأنه مقصد).

وبناء على ذلك يؤكد السنوسي - رحمه الله - أن التقليد لا يكفي في العقائد. ويدعم هذا الرأي بقوله: (كل آية في القرآن ذامة التقليد، وآمرة بالنظر والاعتبار. دليل على ذلك كقوله تعالى: ﴿قل انظروا﴾، وقوله جل وعلا: ﴿أولم يتفكروا﴾ وقوله سبحانه ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾.

والسنوسي - رحمه الله - يريد بآيات ذم التقليد أمثال قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٧٠).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٢٣-٢٤).

ثم يحذر السنوسي الإنسان من تأنيه في عدم مبادرته بالنظر حتى لا يفاجئه القدر ولا يتحقق له الإيمان. يقول (حذر - سبحانه - المتأني بالنظر بخوف قرب موته فيفوته النظر بتأنيه، فيموت غير مؤمن عند بعضهم. فقال بعد قوله (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء) (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) وإجماع الصحابة دليل على وجوب النظر، فإنها لم تزل تذم التقليد، وتحذر منه، وهو قول شائع بينهم من غير نكير)[٢٠].

نخلص من ذلك كله إلى أن المعرفة بالله واجبة ما في ذلك شك، وما يراه السنوسي وغيره من وجوب النظر فلأنه يؤدي إلى واجب هو المعرفة بالله تعالى، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(٢٠) يراجع مبحث النظر في شرح السنوسية الكبرى. تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركه ص ١٠/ ٣٣ ج ١ سنة ١٩٨٥ دار القلم بالكويت.

بقي أن نقول: إن النظر في صورته العليا استدلال من نوع خاص لا يعرفه إلا أهله فهو: ترتيب أمور معلومة على وجه يؤدي إلى الحقيقة.

أما في صورته العامة فحسب كل إنسان أن ينظر في هذا الكون وفي نفسه ليشهد مظاهر القدرة الخلاقة. لينطلق إلى معرفة بديع السموات والأرض العليم الخبير. فهذه المخلوقات تستلزم بالضرورة وجود خالقها العلي القدير، لزوم الشمس لضوء النهار!

لقد عبر عن هذا الحال ذلك البدوي الذي أدرك بفطرته، وتأمله هذه الحقيقة، فقال - في أسلوب بسيط يعجز عنه فلاسفة الماديين - البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدلان على العليم الخبير.

هـــــذا . وبالله التوفيـــق،،،